بتاريخ 19 رجب 1446
المواسعة و المضايقة

الجلسة 58

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين

ضربُ الشّبهات عن بِضع آيات متشابِهات

لقد استَدللنا مسبقاً بمقدّمات الحِكمة المتوفّرة في الفِقرات التّالية: «آمنوا و لم يَلبسوا إيمانَهم بظلم» و «لهم الأمن و هم مهتدون» و «أولئک الذين هدى الله فبهداهم اقتَدِه» و «اجتبيناهم و هديناهم» فإنّها آيات محكَمات حتماً حيث إنّه تعالى ضمن مقام تِبيان التّوسعة و تبيين الأمن المطلق لهم عن السّهو و الخَطأ و الوسوسة حتّى الدّنيويّة أيضاً، فبالتّالي قد بَرهَنت على «العصمة المطلقة» بحيث قد افتَقد الشّيطان السّلطنةَ الوسواسيّة و الإغوائيّة و السّهويّة و... تجاهَ المعصوم تماماً.

فعلى ضوء هات المحكَمات، سنُفسّر أيضاً الآية التّالية: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاٰ نَبِيٍّ إِلاّٰ إِذٰا تَمَنّٰى أَلْقَى الشَّيْطٰانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّٰهُ مٰا يُلْقِي الشَّيْطٰانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّٰهُ آيٰاتِهِ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[1] حيث قد اشتَبه البعض في تفسيرها فحرَّف معناها زاعماً أنّ الشّيطان يَتيسَّر له التّصرّف في أفكار و إرادات المعصومين «بإلقاء الوسوسات» على نفوسهم عليهم السّلام ـ مستدلّاً بفِقرة «ألقى الشّيطان في أمنيَّته» ـ.

بينما الآية الكريمة تَحتضِن ثلاثَ محتَمَلات كالتّالي:

1. ما توهَّمه المتوهِّم ـ للتَّوّ ـ بأنّ الشيطان سيَتدخَّل في نفس المعصوم و يَستورِد له الوسوسات الذّهنيّه حاجزاً لإرادته، و لكنّه تفسير مرفوض ببركة صراحة نفس الآية «فيَنسَخُ الله ما يُلقي الشّيطان ثمّ يُحكِم الله آياتِه» حيث يُعدّ «الفاء للتّرتيب بالاتّصال» فيُنتِج أنّه تعالى سيَمحَق إلقاءاتِ الشّيطان بسرعة فائقة، فلا يَتحقَّق أيُّ حاجب عن إرادة المعصوم بل ستَترسَّخ آيات الله حتماً، و ممّا يُعزّز إجابتَنا هي تكملة الآية الماضية: «لِيَجعَلَ مَا يُلقِي الشَّيطَانُ فِتنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَ القَاسِيَةِ قُلُوبِهِم وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»[2] فإنّها تُفسِّر لنا أنّ أساس عمليّة «الإلقاء الشّيطانيّ» يَصدُر لأجل اختبار «مَرضى القلوب» كالمنافقين و «قُساة القلوب» كالكفّار، فبالتّالي لا يَمَسّ المعصوم إطلاقاً، و لهذا يَستكمل تعالى قائلاً: «وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ.».

2. و أمّا المحتَمَل الثّاني فقد انطرَح في روح المعاني قائلاً: «و المراد بذلك (تَمنَّى) هنا عند كثيرٍ «القراءة».

Ø و الآية مسوقة لتسلية النبي صلّى اللّه عليه و سلّم بأنّ السّعي في إبطال الآيات أمر معهود و أنّه لَسَعيٌ مردود، و المعنى: و ما أرسلنا من قبلك رسولاً و لا نبياً إلا و حاله أنّه إذا قَرأ شيئاً من الآيات ألقَى الشّيطان الشُّبَه و التّخيلات فيما يقرؤه (المعصوم) على أوليائه ليُجادلوه بالباطل و يردّوا ما جاء به، كما قال تعالى: «وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ»[3] و قال سبحانه: «وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً»[4] و هذا كقولهم (الكفّار) عند سماع قراءة الرسول صلّى اللّه عليه و (آله و) سلّم «حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ»[5] إنّه يُحِلّ ذبيحَ نفسه و يُحرّم ذبيح اللّه تعالى، و قولهم على ما في بعض الروايات عند سماع قراءته عليه الصلاة و السلام «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»[6] إنّ

عيسى عبد من دون اللّه تعالى و الملائكة عليهم السّلام عَبدوا من دون اللّه تعالى.

Ø «فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ» أي فيُبطل ما يلقيه من تلك الشُّبَه و يَذهب به بتوفيق النبي صلّى اللّه عليه و (آله و) سلّم لردّه أو بإنزال ما يردّه.

Ø «ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ» أي يأتي بها محكَمَة مثبَتةً لا تقبل الرّد بوجه من الوجوه، و ثُمَ للتراخي الرّتبيّ فإنّ الإحكام أعلى رتبة من النّسخ.

Ø و صيغة المضارع في الفعلين للدّلالة على الاستمرار التّجدديّ، و إظهار (اسم) الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التّقرير و الإيذان بأنّ الألوهيّة من موجبات إحكام آياته تعالى الباهرة، و مثل ذلك في زيادة التقرير إظهار «الشَّيْطانُ».

Ø «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» مبالَغ في العلم بكلّ ما من شأنه أن يُعلَم و من جملته ما يصدر من الشّيطان و أوليائه.

Ø «حَكِيمٌ» في كلّ ما يفعل و من جملته تمكين الشيطان من إلقاء الشبه و أوليائه من المجادلة بها و إبداؤه تعالى ردها، و الإظهار هاهنا لما ذُكِر أيضاً مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التّذييليّ.

Ø «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ» أي الّذي يُلقيه، و قيل: إلقاءه فِتْنَةً أي عذاباً. و في البحر: ابتلاء و اختبار.

Ø «لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أي شكّ و نفاق و هو المناسب لقوله تعالى في المنافقين «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» و تخصيص المرض بالقلب مؤيّد له لعدم إظهار كفرهم بخلاف الكافر المجاهر.

Ø «وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» أي الكفار المجاهرين، و قيل: المراد من الأوّلَين عامّة الكفار و من الأخيرَين خواصّهم كأبي جهل و النّضر و عتبة، و حمل الأولين على الكفار مطلقاً و الأخيرَين على المنافقين لأنّهم أحقّ بوصف القسوة لعدم انجلاء صدأ قلوبهم بصَيقل المخالطة للمؤمنين، (فهذا الحمل) ليس بشيء.»[7]

و بالتّالي، إنّ المحتَمَل الثّاني ـتَمنّى أي قرَأـ رغم نُدرته ضمن المستَعمَلات العربيّة إلا أنّه لا يَقدَح بل يُرافِق عصمة الرّسول و يُلائم الآيات التي تَليها أيضاً و قد اصطفاه الكثير من المفسّرين أيضاً، فالحاصد أنّ تفسيره للآية ـألقى الشّيطان في مقروئات النّبيّ لتحريف الآخَرينـ وجيهٌ و مَتين.

3. و أمّا المحتمَل الثّالث السّديد أيضاً، فقد استَذكره صاحب الميزان قائلاً: «قوله تعالى: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» إلخ:

Ø التّمني: تقدير الإنسان وجودَ ما يُحبّه سواء كان ممكناً أو ممتنعاً كتمني الفقير أن يكون غنياً و مَن لا وَلد له أن يكون ذا ولد، و تمني الإنسان أن يكون له بقاءٌ لا فناءَ معه و أن يكون له جناحان يطير بهما، و (كذا) يُسمّى صورتُه الخياليّة التي يَلتذّ بها «أمنيّةً».

Ø و الأصل في معناه المَني (على وزن «مَشي») بالفتح فالسّكون بمعنى التّقدير (و لهذا يُطلَق على مَنيّ الإنسان نظراً لكُمون كافّة التّقديرات في داخله).[8]

Ø و قيل (روح المعاني): ربما جاء بمعنى «القراءة و التّلاوة» يقال: تمنّيت الكتابَ أي قرأتُه.

Ø و الإلقاء في الأمنيّة (هي) المداخَلَة فيها بما يُخرجها عن صرافتها و يُفسِد أمرها.

Ø و معنى الآية على أوّل المعنَيَين: و هو كون التّمني هو تمنّي القلب (و تقدير ما يُحبّه): و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبيّ إلا إذا تمنّى و قدَّر بعضَ ما يَتمنّاه من توافُق الأسباب على تقدّم دينه و إقبال النّاس عليه و إيمانهم به ألقَى الشّيطان في أمنيَّته و داخَل فيها بوسوسة النّاس (لا المعصوم) و تهييج الظّالمين و إغراء المفسدين، فأفسَدَ الأمر على ذلك الرّسولِ أو النبي و أبطَلَ سعيَه فيَنسخ الله و يُزيل ما يلقي الشّيطان ثمّ يُحكِم الله آياتِه بإنجاح سعي الرّسول أو النبي و إظهار الحقّ و الله عليم حكيم.»[9]

و نِعمَ هذا التّفسير حيث قد وجَّه إلقاءاتِ الشّيطان إلى قلوب النّاس و أفكار المنحرِفين فحسب لا إلى المعصوم. و استِكمالاً لهذه المَقالة، نؤكّد بأنّ «تمنّيَ كلّ شخص بحسبه» حيث إنّ أُمنِيّات العامل تَنسجِم مع أعماله و تمنيّات العالم تَلتَصق بدروسه و أبحاثه، فليَكُن أُمنيّات الرّسول و أهدافه هي «إبلاغ رسالاته التي قد استَجمَعها لدى قرائته للنّاس» فوقتَئذ سيَنهَض الشّيطان و يَتلاعَب في فهم النّاس و تلقّيهم عن المعصوم بحيث تَتَوَسوس أفكارُهم ليَردَعوا تحقّقَ أهداف الرّسول و و يُخرِبوا نتائج إبلاغه ـ لا التّصرّف و الوسوسة في نفس المعصوم ـ.

---

[1] سورة الحجّ الآية 52.

[2] سورة الحجّ الآية 53.

[3] سورة الأنعام الآية 121.

[4] نفس السّورة الآية 112.

[5] سورة البقرة الآية 173. و سورة النّحل الآية 115.

[6] سورة الأنبياء الآية 98.

[7] آلوسي، روح المعاني، ج9، ص: 165-166.

[8] و في هذا النَّسق قد شرَح بعض اللُّغويّين «التّمنيَ» بأنّه نهاية التّقدير و الفرض، و لهذا يُطلَق على الموت «بالمَنِيَّة» لهذه النّكتة (الأستاذ المُبجَّل).

[9] الميزان في تفسير القرآن، ج14، ص: 391